Coptology

"خطية الطبيعة، وطبيعة الخطية"

القديس أثناسيوس، ونيافة الأنبا بيشوي

(٣)

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠١٧

www.coptology.org

لا أدري لماذا يتطوع نيافة الأنبا بيشوي ليجد -كما قال- "تناقضاً" في بحث د. جورج فرج عن الخطية الجدية عند القديس ساويروس الأنطاكي، وهو كما سبق وأشرنا، أول بحث عن القديس ساويرس الأنطاكي يُنشر عندنا في مصر عن هذا الموضوع؟ فتحٌ جديد كان يجب أن نشكر الباحث والمؤلف عليه، وعلى سنوات عمره التي ضحى بها ليدرس ثم يعود إلى مصر ليخدم. فهل يصح أن يكون الجحود والنكران ومحاولة التشويه هي الرد على التضحية، وتشجيع الباحثين؟

خطية الطبيعة:

وأيضاً لا أدري لماذا زجَّ نيافته باسم القديس أثناسيوس الرسولي الذي لم يكن طرفاً في الحوار الساخن، بل والعنيف الذي دار بين القديس أوغسطينوس وأقطاب البيلاجية التي طرحت عدة أسئلة جديدة لم تكن مطروحة في الغرب اللاتيني عن: سقوط آدم – معمودية الأطفال – النعمة – عقوبة الخطية – علاقة الجنس البشري بآدم؟[1]

في الحقيقة، لا يمكن حشر القديس أثناسيوس في هذا الجدل؛ لأنه كان مشغولاً بمواضيع أخرى وهي: أُلوهية الرب – وحدانية جوهر الثالوث – أُلوهية الروح القدس – خلاص الإنسان. ولذلك كتب عن الخلق أولاً، ثم عن سبب تجسد الابن الكلمة وما حققه الابن الكلمة. ولم ينشغل القديس أثناسيوس **بمشكلة الخطية، بل بما هو أعظم، وهو مشكلة الموت**.

---

(١) لم يكن أوغسطينوس يعرف اليونانية، كما أقرَّ هو بنفسه (التعليم المسيحي ٢: ١١ وهي مقالة يشرح فيها العقيدة المسيحية)، وهو الذي أكَّد على ضرورة معرفة العبرانية واليونانية، وفي زمن أوغسطينوس، تمكن جيروم من العبرانية واليونانية، ولذلك استطاع ترجمة الأسفار إلى اللاتينية (الفولجاتا).

* "جاء الموتُ بحكمٍ من الله" (تجسد الكلمة ٤: ٤).

* "ملكَ الموتُ على البشر"، ولاحِظ الصياغة نفسها: "لأن تعدي الوصية أعادهم إلى حالتهم الأولى أو **الطبيعية**". وقد شرح أثناسيوس ماذا يقصد بذلك، فقال: "حتى أنهم كما وُجِدوا من العدم، هكذا بالضرورة يلحقهم الفناء بمرور الزمن"، ثم أضاف: "كانوا في حالة طبيعية –حالة عدم الوجود– وقد دُعُوا إلى الوجود بقوة الكلمة ومحبته للبشر" (تجسد الكلمة ٤: ٤–٥). ولذلك: "كان طبيعياً أن يرجعوا إلى ما هو غير موجود عندما فقدوا معرفة الله" (٤: ٤–٥).

الإنسان الطبيعي المخلوق من العدم:

١– الوجود هو هبة محبة الكلمة للبشر (٤: ٥). هو "صورة الله ومثاله"، وهو "الكينونة" على مثال الله الكائن (٤: ٥)؛ لأن الوجود هبةٌ من الله الكائن، وتعدِّي الوصية، هو حرمانٌ من هذه النعمة؛ "لأن البشر قد دُعُوا إلى الوجود بقوة الكلمة ومحبته" (٤: ٥). ولذلك، الإنسان الطبيعي المخلوق من العدم ليس له وجود؛ لأنه جاء إلى الوجود من العدم، كما نعبِّر عن ذلك في القداس الغريغوري: "مما لم يكن كوَّنت الإنسان". هكذا يجب أن نفهم هذه الفقرة بالذات التي وردت في الفصل الرابع وتكررت في أكثر من موضع: "الإنسانُ **ميِّتٌ**؛ لأنه خُلِق من العدم، إلا أنه بسبب خلقته على صورة الله الكائن، كان ممكناً أن يقاوم **قوة الفناء الطبيعي ويبقى في عدم فناء**" (٤: ٦). وقبل ذلك يقول القديس أثناسيوس: "الإنسان دُعيَ إلى الوجود من **حالة طبيعية هي حالة عدم الوجود**" (٤: ٥)، فهو كائنٌ –حسب القديس أثناسيوس نفسه– بقوة اللوغوس ومحبته (٤: ٥). وعلى ذلك، فبحسب الطبيعة الإنسانية، الفناءُ ليس هو العدم، ولكنه الموت، وهو هنا بالتأكيد الحالة الطبيعة، أي التكوين الذي منه كوِّن الإنسان، وهو "عدم الوجود"، **فالطبيعة ليست كياناً كما تبادَرَ ذلك إلى ذهن العصر الوسيط، بل**

تعني ما هو كائنٌ فعلاً. بمعنى أنه لا يوجد شـــيء اسمه الطبيعة؛ لأن الطبيعة هي الوجود، والعودة إلى "الوجود الطبيعي" هي العودة إلى العدم، أي إلى ما لا وجود له؛ لأن الوجود الإنساني الحقيقي هو الصورة الإلهية ومثال الله الكائن.

٢- فالوجود، مجرد الوجود هو عطية وهبة من الله، ولذلك فعندما يفقد الإنسان "معرفته بالله"، يعود مرةً أخرى إلى العدم، أو الفناء الطبيعي. ونلاحظ أن القديس أثناسيوس لا يقصد بـــ "معرفة الله"، المعرفة الإنسانية الدونية، أي مثل معرفة الأشجار والمياه وغير ذلك، بل المعرفة التي تجعل الإنسان "يحيا حسب الله" (تجسد الكلمة ٥: ١)، وهي معرفة مصدرها الشركة، ولذلك يميِّز أثناسيوس بين نوعين من الفساد:

- **الفســـاد الطبيعي**: يقول القديس أثناســـيوس: "لم يكتفِ الله أن يخلقنا من العدم، ولكنه وهبنا بنعمة الكلمة إمكانية أن نعيش مثل الله، أو حســـب الله (أي أن يكون لنا وجود)" (٥: ١). ولكن البشـر بمشـورة الشـيطان "حولوا وجوههم عن الأمور الأبدية، وتحولوا إلى أعمال الفســاد الطبيعي" (٥: ١). فما هو الفســاد الطبيعي؟ يجيب أثناسيوس بأن البشر "بالطبيعة فاسدين"، وهو يقصد بذلك الفساد، الضعف الكياني، أو الوجود الإنســاني الطبيعي القابل للموت حتى بدون الخطية. فالفســاد هنا ليس له علاقة بالشـر ولا بالخطية، بل هو تحلل وانهيار الوجود الإنسـاني حسـب النص نفسـه: "بالطبيعة فاسـدين، لكنهم بنعمة اشـتراكهم في الكلمة، كان يمكنهم أن يفلتوا من الفسـاد الطبيعي لو بقوا صـــالحين" (٥: ١). فالفســـاد هنا هو عدم القدرة على البقاء؛ لأن البقاء أو الوجود، خاصٌ بالله وحده. أما وجود الإنسـان، فهو نعمة من اللوغوس، هو وجودٌ جعل "سـكنى الكلمة فيهم هو سـبب عدم فسـادهم الطبيعي" (٥: ٢)."بسـبب أن اللوغوس سـكن فيهم، فإن فسـادهم الطبيعي لم يمسَّـهم لأن الله خلق الإنسـان على صـورة أزليته" (تجسد الكلمة ٥: ٢).

- **الفســـاد غير الطبيعي الذي جاء بحكم الموت**: لو كان الإنســـان خالداً عديم الموت بالطبيعة؛ لَعَجَزَ الموتُ عن أن يقترب منه، ولكن الإنســـان "خُلِقَ من العدم إلا أنه بســـبب خلقته من العدم على صـــورة الله الكائن كان ممكناً أن يقاوم قوة الموت الطبيعي ويبقى في عدم موت، أو قوة الفناء الطبيعي، ويبقى في عدم فناء" (تجسد الكلمة ٤: ٦).

ولكن، جـاء حكم الموت، وملـك الموت بحكم إلهي (٤: ٤)، وهنـا يقول أثناسـيوس: "لأن تعدي الوصـية أعادهم إلى حالتهم الطبيعية، حتى أنهم كما وُجِدُوا من العدم، هكذا أيضاً يلحقهم الفناء بمرور الزمن" (٤: ٤)، أي العودة إلى اللاوجود، أي أن يرجعوا إلى ما هو غير موجود (٤: ٥).

إذن، التعدِّي خلَّدَ الفناء؛ لأن صـورة الله نُزِعَت، ولأن الإنسـان فَقَدَ الشـركة في اللوغوس، ولأن الموت صارت له السيادة علينا.

القضـية الكبرى والأسـاسـية هنا هي تحلل الإنسـان وعودته إلى الفناء أو عدم الوجود، وهو ما لم يســـمح به الله. كانت الخليقة مهددة بأن "تهلك وترجع إلى العدم بالفســـاد" (٥: ٤)، وبالتالي يكون **الموت** هو "نُزِعَت نعمة مماثلة صـورة الله" (٧: ٤)، وبالتالي فالخلاص هو أن تُعاد النعمة، وأن يرد الله الكلمة الإنسـان الذي خُلق من العدم؛ "لأنه هو وحده القادر أن يأتي بالفاسد إلى عدم فساد" (٧: ٥).

فما هي طبيعة الخطية؟

ليست للخطية طبيعة، أي كينونة؛ لأنه حسب كلمات أثناسيوس: "كل ما هو شرٌّ فهو عدم، وكل ما هو خير فهو موجود" (٤: ٥)[١]. إنما **الوهم الإنسـاني** هو الذي

---

(١) لم أسمع سوى عظة واحدة في حياتي كلها من القمص صليب سوريال في كنيسة مار مرقس الجيزة، ربما في عام ١٩٦٤ وكانت عن التوبة، وكيف أن الشر يجعل حياة الإنسان مزيَّفة، ويجعل الإنسان يظن أنه بأعماله سوف يكون له وجودٌ أعظم من الوجود الذي وهبه الله، ثم اقتبس القمص صليب سوريال عبارة القديس أثناسيوس، وكان يقرأ من ترجمة القمص

يجعلنا نظن أن الشرَّ له وجود، ولكن كل أعمالنا تتبدد عند موتنا حسب كلمات المزمور (١٤٦: ٤).

الخطية والموت:

ليست الخطية والموت فعلين *two actions* بل هما معاً "عدمٌ". الخطية تضرب الكيان الإنساني المائل بالضرورة إلى الموت؛ لأنه ليس "واجب الوجود"، فالله وحده هو "واجب الوجود"، هو "الكائن"، أمَّا وجودنا نحن، فهو نعمة، هو منحة، أو نعمة نزعها الله منا؛ لأننا اخترنا وجوداً آخر غير الوجود الحقيقي.

ثلاث حقائق خاصة بالوجود الإنساني:

الأولى: خَلَقَ الله من العدم كلَّ الأشياء بكلمته، ولكن الله "رأى عدم قدرة الإنسان أن يبقى دائماً **على الحالة التي خُلِقَ فيها، وأعطاه نعمةً إضافيةً**" (٣: ٣).

الثانية: كان الله يعلم أن "إرادة البشر يمكن أن تميل إلى أحد الاتجاهين: الخير والشر" (٣: ٤). حرية الاختيار منحة، وحفظ **نعمة الصورة** تعني "الخلود في السماء" (٣: ٤). "أما إذا تعدوا الوصية وارتدُّوا (عن الصورة)، وصاروا أشراراً، فسوف يجلبون الموت على أنفسهم" (٤: ٤). ولاحظ أن الموت الذي سوف يجلبه الإنسان هو "حسب طبيعة الإنسان"، أي العودة إلى العدم باعتبار أن الانسان مخلوقٌ من العدم. حرية الاختيار تؤدي إمَّا إلى الحياة وإما إلى الموت. والموت ليس غريباً عن الإنسان؛ لأنه خالف الوصية: "يموت خارج الفردوس ويبقى في الموت والفساد إلى الأبد" (٣: ٤).

الثالثة: الوصية هي أمان النعمة؛ لأنها أُعطيت لكي تحفظ النعمة الإضافية، وهي شركة البشر في قوة اللوغوس. هكذا، الوجود الإنساني، هو –حسب كلمات أثناسيوس–

مرقس داود، ونفذت الكلمات إلى أعماقي، وتغيَّرت نظرتي إلى ذاتي وأعمالي كلها الصالحة والشريرة معاً.

دعوة من اللوغوس إلى الوجود بمحبة اللوغوس للبشـــر" (٤: ٥). وبالتالي، فإن عودة الإنســـان إلى ما ســـبق هذه الدعوة، هو العودة إلى "ما هو غير موجود"، عند فقدان الإنسان معرفة الله (٤: ٥). **إذن، فما هو غير الموجود؟**

حسب الحقائق الثلاث السابقة:

* **هو ضـياع الصـورة الإلهية**، أي حالة الوجود الحقيقي؛ لأن الإنسـان "ميتٌ بالطبيعة"، وهي حقيقة ليس لها علاقة بالخطية. وقبل أن يقفز أحد ويظن أن هذا ضد ما ذكره رســول الرب يســوع في (رو ٥: ١٢): "بإنســان واحد دخلت الخطية إلى العالم وبالخطية الموت"، نعود ونذكِّر بأن المُعلِّم الكنسي يميِّز بين:

- الموت حسب الطبيعة.
- الموت الذي جاء بكسر الوصية والتعدي.

الأول: هو حالة الإنســان الحقيقية التي يقول عنها أثناســيوس: "أي الإنســان الذي خُلق من العدم، إلا أنه بسـبب خلقته على صـورة الله الكائن، كان ممكناً أن يقاوم **قوة الفناء الطبيعي**، ويبقى في عدم فساد، لو أنه أبقى الله في معرفته" (٤: ٦).

الثاني: هو تحوُّل الإنســان إلى ما هو غير موجود: "كانوا (البشــر) بالطبيعة فاسدين" (٥: ١)، وكان يمكنهم أن يفلتوا من الفساد الطبيعي (الموت) لو بقوا صالحين" (٥: ١). هذا حسب شرح أثناسيوس نفسه: "بسبب سكنى الكلمة فيهم، كان فسادهم الطبيعي لم يمسهم" (٥: ٢). وبعد التعدي، اكتسب الموتُ قوةً، فلم يعد فساداً طبيعياً، بل صارت له سيادة أقوى من سيادته الطبيعية" (٥: ٢) لأنه جاء بحكم إلهي "وكان من المستحيل التهرب من حكم الشريعة" (٦: ٢)، فما كان طبيعياً، أي الموت، صار الآن بحكم: "موتاً تموت"، وهو حكم الله (٧: ١).

إذن، ماذا فعل التعدي؟ حوَّل التعدِّي الفسادَ الطبيعي، ونُزعت صورة مماثلة الله (٧: ٤)، وبالتالي صار الوجود الإنساني سائراً إلى العدم، ولذلك لم تكن التوبة كافية (٧: ٣)

ليست الخطية هي سبب تجسد ابن الله

الذين أسسوا تعليمهم على الخطية، واستعاروا هذا النموذج من العصر الوسيط القبطي، ثم من حركة الإصلاح وكتب الإرساليات، وبالذات سبرجن المعمداني المعلم الأول لعدد غير قليل من الإكليروس، وفي مقدمة هؤلاء الأنبا شنودة الثالث نفسه، وضعوا الخطية قبل الموت، وبالتالي صارت هي المركز والمفسر الذي يشرح عمل الابن له المجد. وبالطبع، ظن هؤلاء أنهم وجدوا ضالتهم، أو دستورهم الرسولي في (رو ٥: ١٢ – ٢١). لكن هذا النص بالتحديد يقول عكس ما يقولونه، وهو ما سبق وأن شرحناه بعاليه وسبق أن نشرناه في أكثر من موضع، ولكن في الإعادة إفادة لعل القلوب ترجع إلى الله:

– الخطية هي سبب الموت (رو ٥: ١٢).

– بإنسانٍ واحدٍ دخلت الخطية إلى العالم، وبالخطية الموت، وبالتالي مات الكل، ولذلك توجد قراءة يونانية غير القراءة اللاتينية لنص (رو ٥: ١٢): اجتاز الموت ... إذ أخطأ الجميع فيه، أي بالموت (حسب الأصل اليوناني)، وفيه، أي في آدم (حسب الأصل اللاتيني).

وما يؤكد صحة القراءة اليونانية هو (رو ٥: ١٤): "ملك الموتُ من آدم إلى موسى"، وهي فترة لم تكن فيها شريعة، وهو ما أكده الرسول نفسه في (رو ٥: ٢٣)، ومات هؤلاء رغم "أنهم لم يخطئوا على شبه تعدي آدم" **فكيف مات بشرٌ لم يخطئوا خطية آدم؟** ولكن الرسول لم يقف عند هذا الحد، بل قال: "على شبه تعدي آدم الذي هو مثال الآتي"، أي آدم الأخير الذي لم يخطئ كما أخطأ آدم؛ لأن آدم طلب البقاء الأبدي بالمعرفة، وأن يكون له الوجود الأبدي المستقل عن الله: "يوم تأكل منها تصير كالله"

بخطية واحد مات الكثيرون (رو ٥: ١٥)

هكذا مات الكل، ولم يتكلم الرسول عن "الوراثة"، بل عن "**مُلك**" (رو ٥: ٢١)؛ **لأن الخطية تملك بالموت، أو في الموت، فهي سبب الموت في آدم، ولكن الموت صار سبب الخطية فينا**؛ لأننا نسعى للبقاء بالتعدي وحفظ الذات بالشر.

وبمقارنة نتائج الموت في الأعداد (رو ٥: ١٦ – ٢١)، أي بمقارنة الخطية بالهبة، نجد أن الخطية من الإنسان، وهي سبب الموت "بخطية الواحد ملك الموت بالواحد (آدم)، فبالأولى كثيراً الذين ينالون فيض النعمة وعطية البر بملك الواحد يسوع (آدم الأخير)" (٥: ١٧).

بمعصية الواحد جُعِلَ الكثيرون خطاة أي أموات، والدليل هو (٥: ٢١): "حتى كما ملكت الخطية في الموت ...".

في النهاية نوجه بعض الأسئلة للذين يعلمون بوراثة الخطية:

١– إذا كنا ما نزال نخطئ بعد المعمودية والميرون والإفخارستيا، فهل نقع تحت حكم الموت؟ أبداً؛ لأن الذي أُبيد هو الموت والهاوية، والدليل هو صلواتنا في القداسات والأجبية.

٢– ماذا تعلِّمون عن الموت؟ ذلك الموت الذي نراه ظاهراً في الدفاع عن خطايانا خوفاً على كرامتنا حفاظاً على حياتنا المهددة بالموت، والذي نراه ظاهراً في الهجوم على الآخرين وفي الكثير من تفاصيل حياتنا؟

لا شيء. لقد حصرتم التعليم عن الموت عندنا في الموت البيولوجي، فهل هذا كاف لتفسير مأساة الإنسان وعمل الابن الكلمة في الخلاص؟